قصة قصيرة

# الخماس

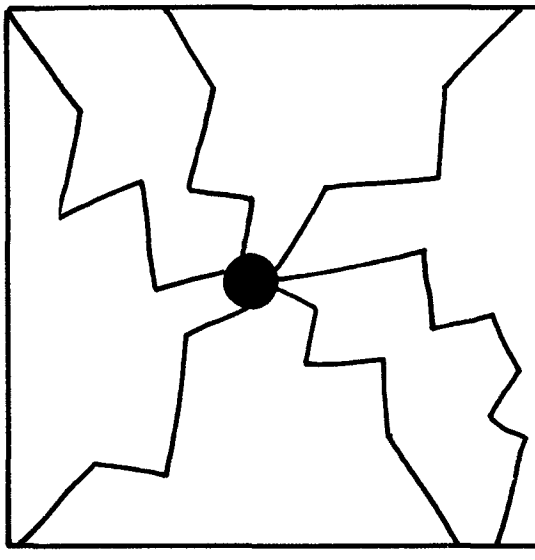

د. عبد الملك مرتاض

وتطبق على عنقها بكل أصابع يديك . وتضغط بكل قواك . ( أفضل موتة لها ، لا أحد يعرف . سيعرف الناس فقط أنها ماتت ميتة طبيعية . أدفن معها العار . شيء لا يصدّق . ابنتي تحب الخمّاس ؟ ابن الكلب ، سأرميه بالرصاص . . . ) .

ولكن لماذا الرصاص ؟ ولكن لماذا تحبك ؟ ولكنك أنت نفسك لا تصدّق . أنت مجرد خمّاس فعلاً . هكذا ينظرون اليك . هكذا يعاملونك . أين أنت منها ؟ منهم ؟ أبوها يملك الكثير . . . أنت لا تملك إلاّ عضلاتك وساعديك المفتولين . هم يستغلون قوة جسمك ، أنت تجمع وهم يأكلون . أكبروا عليك حتى هي ، لأنك خماس . . . أنسيت ؟ كلما هطل المطر ، هطل على جسمك من خلال الجلباب الوحيد الذي ترتديه على اللحم . صيفاً وشتاء ترتديه وحده . بدأت آثار البلى تأكل اطرافه . أطرافه أدمت بعض جسمك . أنسيت يوم جلست إلى الجدار فتركت آثار جلبابك المبلّل عليه ؟ جسمك كان يرتعش من عواء الريح . ولكن رجولتك البدوية كانت تأبى عليك أن . . . أنت فتى قويّ . لا يجوز أن تعرف أن البرد القارس يؤثر فيك . تضرب بغليك بالسوط ، تضغط على المحراث الخشبي بكل قواك ، تتحدّى عواء الريح . تتحدّى هطول المطر . لا تبالي بالضباب . . . علامات خير بالموسم . سيكون أفضل من الموسم الماضي . . . كم تعبت من اجل أبيها ؟ . . . لا ، إعترف ، من أجلها هي . ولكن النتيجة كانت غير مرضية . وكل المحصول قدمته إلى أبيك الشيخ .

الشيخ الذي دفعك إلى الزواج ، مرات ومرات .

كلماته أصبحت محفوظة في ذاكرتك ، نقشت على صفحتها كما ينقش الصوت على الشريط . . .

ـ أنا يا ولدي أصبحت شيخاً فانياً . وأخاف أن أموت قبل أن أفرح بك .

ـ أنت تعرف ، نحن مساكين .

ـ صحيح يا ولدي ولكن ابنة خالتك ستقبل الزواج منك . .

ـ نؤجل الحديث في هذا .

أنت لا تريد ابنة خالتك . هواك تعلّق بتلك . . . انما لا تدري . تدري فقط أنها تهتّم بك . أنها تتفنن في طهي الطعام لك . تحرص على أن تأتيك به بنفسها الى الحقل حين تكون قريباً من الدار . تحمله على حمارها الأشهب .

إنما لماذا تخدع نفسك ؟ لماذا تكذب أباك ؟ أنت لا تريد ابنة خالتك ، تريد ابنة الملاّك . ربما أيضاً . . . انما العقبة هي أبوها . . . ربما يرضى حبّاً لابنته واحتراماً لرأيها . وتفاتح أباك . وتلح عليه . وتزيّن له الأمر . ويقبل مع شيخ آخر :

ـ اننا جئناكم خاطبين .

ـ لم أفهم ،

ـ ابني الخماس يريد ابنتك زوجة له .

ـ هل أنت مجنون يا شيخ ؟

ـ لماذا الاهانة ؟ انه فتى مهذّب وكريم .

ـ أنسيت أنه خمّاس ؟

ـ ليست العبرة بالمال ، وانما بـ . . . .

ـ كفاني وعظاً ، قل ما تشاء ، فلن أزوّج ابنتي خمّاساً أبداً . . . وينهض أبوك من ذلك المجلس وهو غارق في المذلة .

* * *

« كيف يجرؤ ابن الكلب على ابنتي ؟ يجيء أبوه طالباً يدها . لقد قرّروا أن يرثوا أموالي ، الطمع أعمى قلوبهم ، كيف يهينون ابنتي ؟ خماس يتزوج ابنتي ، مستحيل ؟ انما لماذا أبقيت عليه ؟ لو سرحته عند نهاية الموسم الفلاحي الماضي . آه تذكرت ، لأنه خماس جيّد ، يحسن خدمة الأرض . يحسن سياسة الدواب . يتقن حلب الابقار كأنه يساوي ثلاثة خماسين . انما كان جزاء ابنتي معه اهانتها . رجل لا يملك إلا جلباباً صوفياً واحداً يلبسه ، كيف يتزوج ابنتي ؟ ابنتي لا

تتزوج الفقر» .

انما لا بد من فعل شيء . يستحق العقاب ،

ـ اسمع أنت !

ـ نعم .

ـ منذ الآن لست خماساً عندي : أسمعت ؟ منذ الآن . . .

ـ كيف ونحن في بداية الربيع ؟

ـ عند نهاية الموسم سيحكم بيننا الجماعة .

ـ مستحيل .

ـ لماذا ؟ هل أصبحت شريكاً لي في الثروة ؟

ـ لا ، ولكن . . .

ـ منذ الآن حرام عليك أن تدخل داري . . . أفهمت ؟

وكانت هي تتسمّع من وراء الجدار . وكنت كأنك تشعر بنفسها يداعب شعرك . انما الاهانة كانت تقطع قلبك . أصبحت الآن عاطلاً . أين تعمل ؟ كل الملاّكين اتّفقوا مع خمّاسيهم للموسم كله . . . أكثر من ذلك ، فقدتها ، ربما الى الأبد . . . انما ، لا ينبغي أن تستسلم لليأس . هي ربّما أيضاً . العبرة بها هي . أبوها لا شيء .

في هذه القضية بالذات . لا يستطيع أن يمنعها من حبّك . . . هي حتماً تحبّك . وأنت ستبحث لك عن عمل . ستكون مقاطعاً عند هذا الملاّك أو ذاك ، تحصد معه وتدرس ، لك أيضاً زملاء في رحبة البقر :

ـ اسمعوا ، أخوكم طرده الخنزير .

ـ ينبغي أن لا نسكت .

ـ انما ماذا نفعل ؟

ـ نحن الخماسين في القرية قوة : لو توقّفنا عن العمل . . . لا بد أن نحتج على طرد زميلنا . .

ـ نحن في ربيع . توقُّفُنا لا يؤثّر. فكرة غير عملية .

ـ نذهب الى الملاّك ونرجوه . . . أو . . . نهدده ليرجع صاحبنا .

ـ غداً بعد غروب الشمس .

انما كيف تسكت ألسنة الناس . الناس يقولون ما يشاءون . أنت فتى قويّ . ساعداك تكسران الصخر . فلاح ممتاز . كلهم يعرف ذلك . سيعترفون أنه هو الظالم . كل الخماسين في القرية معك . أنتم قوة ، أنت اذن شيء . أنت اذن موجود في قلبها . قلبها حتماً يتعلق بك ، ستجرب ذلك بنفسك . . .

تعترض سبيلها وهي عائدة من البئر . الحمار الذي كانت تحمل لك عليه الطعام والماء . . هو نفسه الذي يحمل اليوم جرّتين من الماء . أخذ ينظر اليك لو كان ينطق لعاتبك على فراقه . انما لو كان يعقل لعذرك . مالكه هو الذي طردك .

على الحمار أن يعلم هذا . إنما الحمار لا يستطيع ذلك . وهي أيضاً ، حتى هي ، لا تستطيع أن تدافع عنك . حتى هي لا تستطيع ، أبوها سيتهمها بأنها . . . فهل فعلاً تحبك ؟

ـ هذا شيء لا يقال . أنت تعرف . . .

ـ كيف أعـرف ؟

ـ هذا ليس مهماً . احذر ، أخاف أن يراك أبي .

ـ اقترح عليك لقاء قرب الدار . ان كنت تثقين . . .

ـ متـى ؟

ـ الليلة عندما يطلع القمـر .

وتهبط أنت مع النهر تعدو كالوليد السعيد ، تغني لحناً فولكلوريّاً . يغنيه الخماسون في القرية . يردده الحصادون في الحقول . ترفع به عقيرتك :

ـ . البنيّـة يا نـوار البنـان .

ـ . اللّي يساومك يزيد في الثمـن . . .

ويردد الصدى صوتك . صوتك ينتشر مع الفجاج . وفجأة تتوقف عن الغناء . وينخرط الشك :

عندما يطلع القمر ؟ هل ستعرف القمر ؟ ما القمـر ؟ أين القمر ؟ كيف القمـر ؟ متى القمر ؟ لماذا حتى مطلع القمر ؟ الآن فقدت الحساسية بالزمان . بالمكان أيضـاً .

لا شيء سواها .

هي التي قالت القمر . أين القمر ؟ متى القمر ؟ تجده في عين ماء النهر ؟ لا بعد . فوق الزرع الأخضر الذي زرعته بيديك ، وحرثته في أيام البرد الشديد ؟ لا بعد . فوق القليب الذي أضنيت فيه جسمك هدراً . لا تدري . هل في الشبكة التي شرعت في فتل حبالها بأصابعك ؟ لا تعلم . هل في المناجل التي أخذت تهيئها لحصد المحصول الوفير ؟ لا تدرك . هل في عين الشمس التي صلت جسمك ؟ هل في تيار العواصف التي كانت تهدّ كيانك ؟ هل في الأمطار التي كانت تتهاطل على جلبابك فتتسرب الى حر جسمك فتبلله ، فيقشعرّ الجلد ، وتتغيّر السحنة ؟ كذلك لا تعرف . وهي لا تعرف أنك لا تعرف . .

لماذا تسأل نفسك ؟ لا تسألها . لا تحاول ذلك . لا تفكّر فيه . أنت ناطق ؟ يقولون : أنت خماس جلف . جلف فقط . فظّ كالصخر الجلمود . من هم ؟ هم . هم ، من هم ؟ أنت تعرف . أنت تعرف . قل ، كأنني أنطق . احسّ أحسّ أفضل منهم . أعبّر أفضل منهم . من هم ؟ هو . من هو ؟ أنتم تعرفون . أنتم لا تعرفون أنا فقط أعرف . كنت أعرف . سأعرف سأظل أعرف . المعرفة شيء في ملكي . كما يملك الملاّك الحمار ، أملك المعرفة . تألق نجمي في القرية . أصبحت خماساً مرموقاً . . . أستغفر الله . ، لم أعد خمّاساً . . . أبوها يخافني . هي تحبني . الخماسون معي يتضامنون . أنا اذن ، أنا . . .

الخمّاسة لا تخجلني ، أو تخجلني ؟ لست أدري في الحقيقة . آه لولا فقري . . كيف يكون الملاّك؟كيف اشترى كل أراضي أبي . . في أيام المجاعة . كنا نأكل « البقوق » ، أنا خماس جلف ؟ محال ، محال ، . . . نسوا انك تعلّمت القراءة والكتابة في ( خربيش ) القرية . علّمك الفقيه الأعور . حصل على رخصة تحفيظ القرآن بعد سنوات من الانتظار . أعطاها اياه الفرنسيون باذن من القائد ، وتدخل من الشيخ .

أنت اذن لست جلفاً . هم يكذبون . أنت متعلم ، ولكنك خماس ، كنت خماساً . أنت الآن دون ذلك . عاطل . لباسك جلباب خشن . وعمامتك ممزقة كالفتيلة . حذاؤك ( بوعفاس ) يابس . أطرافه كالسكاكين ، تجرح . . .

هل ستخرج لك عند مطلع القمر ؟ هل هي . . . ؟ ستعرف ذلك عندما يملأ القمر الفضاء . أنت لا تريد منها شيئاً . فقط تراها . صوتها لا يزال يرّن في مسمعك ، كالنغم المصبوب . كيف تنساه ؟

ويشرق القمر شاحب الوجه ، ممتقع اللون . كالمريض الناقه يطل عليك . لا يلبث نوره أن يتألق . فعلاً . وذلك شبح يقترب منك . هي . وأنت فعلاً . والزرع الوثير تفترشانه . أوراقه لينة كالحرير .

وهـل تحبّها ؟

وهـل تحبينه ؟

وهل تدريان ؟ ولا تدريان . وترتعشان . . . ومنكما يأتي الدفء اليكما . الدفء . الدفء . فعلاً . والحياة في اللحظة الصفر . . والقمر يرسل أشعته على الزرع .

الزرع كافأكما . وتولد الحياة منكما على فراش الزرع . ويذوب الفقر والغنى . ويذوب الماضي كله . ويقطع هذه اللحظة شبح يتحرك نحوكما . يشهر بندقيته بين يديه . . .

وتسلّ سكينك من غمدها .

ـ لا ، إيّاك ، هذا بويا . أهرب قلت لك : اهرب،

ـ كيف تفعلين هذا يا فاجرة ؟

ـ ما فعلت أيّ شيء ، يا بويا ، أحلف لك ، . .

ـ كذّابة ، سأقتلك . وأقتل الكلب الذي كان معك . . .

ـ بُويـا ، . . .

ـ غداً سأدفنك ، حتى أمك لن تعرف أنني قتلتك . . .

ـ بُويـا ، حرام عليك ، أنا بِنْتك ، . .

وتشهر سِكِّينَكَ الماضية . وتنطلق نحوه . . .

**وهران ، في ٩ أبريل ١٩٨١**

---


دار الآداب

# قصة حب عصرية

الدكتور شريف حتاته

الدكتور شريف حتاته